المبحث الخامس

التقابل الدلالي

وأعني به التقابل الذي يحدث بين أجزاء النص على المستوى الدلالي العميق . وقد تجلت هذه الظاهرة في مواطن متعددة من العبقرية ، وأغلب هذه المواطن تمثَّل فيها التقابل الدلالي بشكل جزئي ، وأعني بذلك أنَّ التقابل الدلالي سيطر على عبارة أو عبارتين من الفصل ، ومن ثَمَّ سيطر على فكرة أو فكرتين فقط من الأفكار التي يضمنها الفصل[1] .

ولكن حديثي في هذا المقام سوف ينصب على فصل سيطرت عليه هذه الفكرة بأكملها ، بمعنى أن الفصل قام أساسًا على (التقابل الدلالي) وهذا الفصل هو الفصل الموسوم بـ (عمر والحكومة العصرية) .

وفكرة هذا الفصل قائمة على المقابلة بين سياسة الفاروق في حكم العالم الإسلامي وسياسات الحكومات العصرية على اختلاف أشكالها في الحكم .

فقام العقاد برصد هذه المواقف التي تبرز هدفه من المقابلة ومنها :

«أنه ـ وهو أقدر المالكين في عصره ـ كان يقنع بالكفاف ويلبس الكساء الغليظ ويهنأ إبل الصدقة ـ أي يداويها بالقطران ـ ويراه رسل الملوك وهو نائم على الأرض نومة الفقير المدقع ، وتعرض له المخاضة وهو داخل إلى الشام

---

(١) من هذه المواضع :

١- المقابلة بين مكانة عمر بن الخطاب في حالة عدم ظهور الإسلام وبين مكانته بعد ظهور الإسلام ، عبقرية عمر ، ص ٧ .

٢- المقابلة بين شدة عمر ولين وهوادة أبي بكر ، ص ٨ .

٣- المقابلة بين مقاييس العبقرية لدى القدماء ولدى المحدثين ، ص ١٣ .

٤- المقابلة بين الشخصية الكاملة والشخصية المنقوصة ، ص ٥٠ ، ٥١ .

فينزل عن بعيره ويخلع خفيه ويخوض الماء ومعه بعيره ، ويسافر مع خادمه فيساوي بينهما في المأكل والمركب والكساء .

حاكم من حكام العصر الحديث لا يصنع هذا ولا يطالب بأن يصنعه ، وهو وأبناء العصر الحديث على حق فيما ارتسموه لأنفسهم من السمت والشارة ، لأن حاكم الأمة يحتاج إلى المهابة بين قومه وغيرهم من الأقوام ، وهذا حسن مشكور»[1] .

ففي هذا المثال يتضح لنا المقابلة بين مصدر المهابة العمرية التي تنبع من ثبات العقيدة ، على حين ترتسمها حكومات العصر الحديث وتستمدها من السمت والإشارة .

ومثال آخر ورد في نفس الفصل :

«إنما كان الرجل يحاسب غيره فيعطيه حقه في غير بخس ولا حرج ، ويحاسب نفسه فيؤثر الشدة ليقطع الشك ويدرأ الشبهة ويقتدي بصاحبيه ، ويترك القدوة المثلى لمن يليه ، فلا سبيل عليه لباحث في نظم الحاكم ولا لباحث في معاني الأخلاق .

على أن عصورنا الحديثة تستغرب الشظف من عمر وهل تهلل لملوكها وتكبر لهم حين يستنون لأنفسهم سنته في بعض أوقات الضيق والمحنة ، وهي الأوقات التي ينتبه فيها شعور الرعية للفارق بينها وبين راعيها في المعيشة والتكليف وأكثر ما يكون ذلك في أوقات المجاعات والحروب وشح المئونة على الإجمال»[2].

وفي هذا المثال يظهر التقابل بين عجب العصور الحديثة من شظف معيشة ابن الخطاب ، وبين تهليلهم لملوكهم متى قلدوه في بعض أوقات الضيق والمحن .

واستمرت المقابلة داخل هذا الفصل أيضًا فقال :

«كان عمر يعس في المدينة فسمع صوت رجل وامرأة في بيت فتسور

---

(١) عبقرية عمر ، ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٣ .

الحائط فإذا رجل وامرأة عندهما زق خمر . فقال : يا عدو الله ! أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على مصيبة ؟ فقال يا أمير المؤمنين أنا عصيت الله في واحدة وأنت في ثلاث فالله يقول : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ (الحجرات:١٢) وأنت تجسست علينا ، والله يقول : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ (البقرة:١٨٩) وأنت صعدت الجدار ونزلت منه ، والله يقول : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (النور:٢٧) ، وأنت لم تفعل ذلك ، فقال عمر : هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال : نعم ، والله لا أعود . فقال : اذهب فقد عفوتك عنك .

فالدساتير الحرة تمنع الرقابة وفض الرسائل واستباحة الأسرار .. والحكومات مع هذا المنع الدستوري تضطر إلى استطلاع الأحوال واتقاء الجرائم بمراقبة المتهمين وذوي الشبهات فإذا اتفق في حادث من الحوادث أنها استباحت سراً يدل على جريمة محظورة فماذا يكون من سير الإجراءات الرسمية ؟ ويكون ما كان من عمر في الحدث الذي رويناه بغير اختلاف...»[1].

وفي هذا السياق يقابل العقاد بين السياسة العمرية في استطلاع أحوال الرعية وبين الإجراءات الرسمية التي تنتهجها الحكومات العصرية .

وأرى أن العقاد كان يعول في المستوى الدلالي العميق على المفارقة ، بمعنى أن الظاهر من العبارات السابقة هو (التقابل الدلالي) ولكن العقاد حول هذا التقابل بفعل السياق الوارد فيه إلى تقابل وتشابه في آن واحد .

وأعني بذلك أن السياسات العمرية التي تتعجب منها الحكومات الحديثة تنتهجها الآن ولو بطرف خفي .

فالعقاد يسعى إلى تماسك فصول العبقرية عن طريق التوكيد بالتقابل الدلالي على فكرة السبق والتفرد للفاروق، ومن ثَمَّ فهو يؤكد العبقرية العمرية .

* * *

---

(١) عبقرية عمر ، ص ١١٧ ، ١١٨ .